

ملخص المحاضرة:

علاقة الروحانية بالدين علاقة إشكالية ومعقدة إلى حد بعيد. هذا يصدق عندما نفكر في تطور العلاقة بين الإسلام والتصوف الذي يُنظر إليه بوصفه المعبر عن الروحانية الإسلامية ويصدق أيضا عندما نندبّر تجارب إنسانية أخرى حضرت فيها أديان تفرقت منها وعنها رؤى ومناهج روحانية. هو تعقيد عرفته كلّ الأديان تقريبا وخصوصا التوحيدية وهي الأكثر حضورا في الذاكرة. المسألة بالتالي ليست إسلامية خاصة بل هي دينية عامة والمهتم بها، بالمقارنة، عند اليهود والمسيحيين والمسلمين يخلص إلى أنّها ترتبط بمنهج التدين العام ولا ترتبط بدين بعينه. لكلّ دين خصوصياته ولكن الاهتمام هنا بجانب يُمكن معه جمع كلّ الأديان

يبدأ الدين، كلّ دين، تجربة روحانية صرفة تعتمد سؤال الإنسان عن الغيب وحيرته في الكون وتوقه إلى المطلق ويتطور إلى تجربة جمعية ثم اجتماعية فنحن نعرف جماعات واسعة ومجتمعات بأسرها ومنذ قرون بالدين الذي تعتنقه أو تنتسب إليه. هذا تطور من الذاتي إلى الجمعي ومن الأنطولوجي إلى التاريخي وهو أيضا تطور من البسيط إلى المركب أو المعقد. يتغير فهم الدين كثيرا وتتغير مباحثه ومعارفه وكذلك أولويات المُتدينين عندما يطول الأمد وفي العام فإنّ اللحظة الدينية الأولى والمؤسسة تُهمّش تدريجيا لتغيب ويصبح الدين تقليدا دينيا ويعظم ميراثه وتضخم مدوّنته وتتسع اختصاصاته وتكثر مدارسه وتتفرّق مذاهبه. في الظاهر والظاهر فقط يبدو ذلك ضربا من إثراء الدين. جوهرًا، يمكن اعتبار ذلك ابتعادا عن الأصول والأسس وهي روحانية وتلكم الأسس والأصول هي التي أهدت الإنسانية، على اختلاف معتقداتها، ذواتا كيفية (لجهة بناء النموذج) تعجز عنها الأنساق الكلامية والفقهية والفكرية المُتديّنة.

تنطلق الورقة المُقدّمة من فكرتين مرتبطتين. الأولى أنّ الأديان بالنظر إلى ما آلت إليه وما طرأ عليها عبر تاريخ طويل غدت عاجزة اليوم عن مدّ الإنسان بما يحتاجه من أجوبة وحلول وهو الذي يعاني من فقدان المعنى وضمور الحماسة ويكاد يُسلم بزمن طغيان المادة والنفعية إلى العيب. جرّب المسيحيون هذا منذ قرون وجرّبه غيرهم قبلهم والدور الآن على المسلمين وليس ذلك بالعجيب ولا الغريب

الفكرة الثانية أنّ الخروج من هذه الأزمة لا يكون إذا كان الّا بإعادة استكشاف الروحانية بُعدا عن التهرج والشعوذة والغرابة وما نستدعي بالذاكرة من فلكلور كلّما كان حديث في الروحانية وغيرها. نفهم هذه العودة استنكارا لتدين فجري لا غسقي واستمدادا من بدايات الدين لا ممّا آل إليه وما دخل عليه من أحوال مُتديّنين عبر أزمنة عاصفة.

لن نقصر بحثنا في المسألة على الإسلام والمسلمين فهي، كما أسلفنا، عامّة والمناطق هنا إنساني يرتبط بقدرنا الرّمزي والمعنوي جميعا مهما اختلفت معتقداتنا وثقافتنا. نرصد من موقع البحث انتعاشا دوريا لسؤال الدين وان بوسائل ووسائط مختلفة. يكشف انتعاش سؤال الدين حنينا ولكن أيضا حاجة متجددة إليه يُعبر عنها بجديّة ومثانة وإلحاح فلاسفة وأدباء ومفكرين عديدون. وفي العام فإنّ الاهتمام بالدين الآن يقترن باهتمام بالروحانية. هل الروحانية في السياق المائل اليوم تنصلّ من الدين؟ هل هي عودة إلى أصوله وزمن بداياته؟ وهل بمقدور الروحانية وقد وُصفت طويلا بالسلبية والانزواء أن تحضر حركة وتفتح حلولا لتدين مأزوم ولإنسانية تأخذها التقنيّة المُنفلّنة وثقافة السّوق إلى نظام تهاة؟